قصص من السيرة

٣

زوج البنت

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشثنيان

العبيكان
Obeikan

قصص من السيرة
(٣)

زوج البنت

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن العبيكان

العبيكان
Obeikan

ⓒ شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان؛ عبدالعزيز بن عبدالرحمن

قصص من السيرة: زوج البنت./ عبدالعزيز بن عبدالرحمن العبيكان -ط٢ -الرياض، ١٤٤٣هـ

٣٦ ص ؛ ١٦,٥ × ٢٢سم

ردمك: ٣-٤٥٧-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٤٣/١٠٨٥٩

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ / ٢٠٢٢م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض

طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذه مجموعة قصصية مختارة، جاءت بعد قراءةٍ متأنيةٍ لسيرة المصطفى ﷺ العطِرَة في كتاب السيرة النبوية لابن هشام، وفي بعض الكتب الأخرى القديمة والحديثة.

وتركز جُهدي على جمع الموضوع الواحد، وربط أحداثه بعضها ببعض، ومن ثمَّ إعادة صياغته وإخراجه في قصّةٍ مستقلةٍ بذاتها.

أسأل اللهَ أن يرزقنا شفاعة المصطفى ﷺ في يومٍ لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون، إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وأن يجعل أعمالنا خالصةً لوجهه الكريم.

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثّنيّان

الرياض ١٤٤٣هـ-٢٠٢٢م

ما أعزَّ الأبناء! وما أغلى البنات!

ولنا في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة، والمثل الأعلى. إن رسول الله أب حنون ورقيق عطوف، حنَّ على صغاره، وتلطَّف مع فلذات كبده، وحملهم على عاتقه وهو في الصلاة.

ولنتأمل هذه الرقّة، ونرى هذا العطف، ونُشاهد ذلك الحنان، ونلمس تلك الإنسانية في قصة زواج ابنته الكبرى زينب رضي الله عنها وتأخر إسلام زوجها، وأسره وإطلاق سراحه، وموقف الرسول ﷺ من هذا الزوج الكريم أبي العاص بن الربيع، واسمه لقيط بن ربيعة.

لقد كانت البداية قبل نزول الوحي، فقد أحبّ الخاطب زينبَ، وتمنى الزوج زينبَ، ولعله أُسر بهذا الحب لخالته السيدة خديجة، وبهذا الشوق لأم المؤمنين رضي الله عنها.

وتحنُّ الخالة لابن أختها هالة بنت خويلد، وتلمح الشوق في قلب ابنتها الكبرى السيدة زينب، وتُخبر المصطفى ﷺ بهذه الرغبة، ويبارك الأبوان هذا الطلب، ويتقدم أبو العاص بن الربيع بطلب يد الحبيبة من الحبيب الطاهر ﷺ، فيحسن الرسول استقباله، ويُكرم وفادته، ويعهد لأمها أن تبلغ الصبية النبأ، وتنقل لفلذة كبده الرغبة.

ويقترب ﷺ من ابنته، ويقول بصوت ملؤه الحب والحنان، والسعادة والإسعاد: بُنيَّتي زينب، ابن خالتك هالة أبو العاص بن الربيع تقدم وأبدى الرغبة.

وتصمت البنت، وتستحي الغالية، وتسكت الحبيبة، وأحسب أن سمعها قد زفّ البشارة لقلبها ولجوارحها، ولكن الحياء يُمسك اللسان في هذه المواقف ما لم يكن الرفض

والإباء، ويتريث الأب، ويسمع من بُعد خفقات القلب ودعوات الأم، وعند ذاك يعود ويبارك للزوج، ويدعو للحبيبين.

وكان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة المعروفين بالمال والأمانة والتجارة والمكانة؛ ولهذا ما إن ذاع النبأ في مكة المكرمة حتى تبودلت التهاني، ولم يقل أحدٌ إلا الخير والثناء.

ومضت الأسابيع، وحان موعد الزفاف، واقتربت ساعة اللقاء، وتحددت ليلة البهجة، وفكرت الأم في ابنتها، وتأملت حبيبتها، ففي الغد ستذهب إلى العش الجديد، وستصبح سيدة آمرةً، وامرأةً مدبِّرة، ولكن قلب الأم يضعُف، وفؤادها يَرق، ودمعها يغرورق، فهل تصبر على الفراق، وهل تتحمل البعد، ثم تناجي الأم نفسها، ماذا تهدي للحبيبة في هذه الليلة السعيدة؟ أتنزع قلبها، أو تهدي كبدها، أم تقدم مهجتها؟ أيتها الأم ما أصبرك وأرقك!

وآه يا أُمَّاه، ويا كلَّ أمٍّ، ما أحنَّكِ وأرحمك!!

وتلمح الأم السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قلادتها الغالية، وتتلمس حبَّاتها الكريمة، وتعُد لآلئها النفيسة، ولم تجد أعز وأغلى من هذه الهدية، لتُطوق بها عنق ابنتها، وجيد حبيبتها العروس، وترفع بيديها الكريمتين تلك القلادة، وتحتضن جيد ابنتها، وتشدُّ طرفَيْ خيطها حول العنق الرقيق، ثم تبتعد خطوات لترى القلادة، وقد ازدانت بها العروس، فتهمس بالدعاء، وربما أنها مسحت دموع الفرح، وجفَّفت قطرات الحب من وجنتيها.

وتنتقل العروس لبيت الزوج، وتعيش مع زوجها حياة كريمة، وعيشة راضية، كلها حب ووئام، ومسرة وسلام، وتبادل الزوجة عطف زوجها بعطفٍ أرقّ، وحبَّه بحبٍّ أجزل، ويكدح الزوج، ويسافر في طلب المعيشة، ويتنقل من بلدة لأخرى، ومن راحلة

لراحلة، وتتعاقب السفرة تلو السفرة، والرحلة إثر الأخرى، ولكن قلبه يظلُّ مع زينب، وفؤاده مع الزوجة الغالية، حتى صار الركبان يتغنُّون بأنشودته في بنت الحبيب، ويردّدون أشعاره في بنت المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ يقول:

ذكـرتُ زينـبَ لَّـا ورّكـتْ إرمـا

فقلتُ سُقْيا لشخصٍ يسكنُ الحرما

بنـتُ الأمـينِ جزاهـا اللهُ صالحـةً

وكلُّ بعـلٍ سـيثني بالـذي عَلـما[1]

إي والله، إن كل بعل أحبّ سيهتف بالحب في خلوته، وكل زوج سيردد الشوق في سفرته، وسيجري على لسانه ما علمه من خصال حميدة، وما عرفه من سجايا كريمة، وسيتوارد في خواطره مُحيا الحبيبة، وسيتوالى أمامه طيف الرفيقة، وهنيئًا لهذا الزوج بنسل النبوة، وسعدًا له ببيت الصفاء والكرامة، ولقد كانت الفتاة الصدوق، والسيدة الطاهرة تبادل زوجها شوقًا بشوق، تكتوي بمرارة الفراق، ولكنها تتسلى في بيت النبوة، وتساعد أمها السيدة خديجة في شؤون الدار، وتحسُّ مع أُمّها بالفجر القادم، ولكنها لا تعلم الحقيقة، ويدور في هواجسها قلقٌ واضطراب، ولكن زوجها يبث في نفسها الطمأنينة، كلما عاد وحكت له ما تشعر به.

وتَمَّحي الأيام، وتغيب الشهور، وينطوي الزمن، وروابط الحب تزداد بين الزوج وزوجته، ويرزقهما الله بالوليد الجديد، ويُسميانه عليًا، ويتربى الصغير غير بعيد من بيت

(١) ذكر البيتين الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٨)، وانظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية: أبو القاسم السهيلي (٥/ ١٢٧)، وعيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: ابن سيد الناس (٢/ ٣٥٨)، إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: تقي الدين المقريزي (٥/ ٣٤٣)..

النبوة، وتتبعه أُختيُّه أُمامة، ويدرج الصغيران في أحضان الأبوين، وترمقهما عينا الأب الحنون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيرق للطفولة، ويأنس بالأحفاد، ويناغي الصغار، ويداعب الأطفال، وازداد حبُّه للصغيرة أُمامة، حتى صار صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحملها على عاتقه في الصلاة[1].

ودارت الأيام، وحان موعد الرسالة، وصدع المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالحق، وأخبر أُم المؤمنين السيدة خديجة بما جاءه من وحي، فلبّت النداء، وتبعتها زينب وأخواتها، وصدَّقن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشهدن أن ما أخبر به حق، ولكن الأم والبنات سمعن قول ورقة ابن نوفل: «والذي نفسي بيده، إنك لنبيُّ هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتُكذبنَّه، ولتؤذينّه، ولتُخرجنَّه، ولتُقاتلنَّه»[2]. ولهذا حملن همّ الأبوة، وأشفقن على المصطفى صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسرحن يفكرن في الغد، ويتذكرن قول ورقة بن نوفل: لتُكذبنَّه، ولتؤذينَّه، ولتُخرجنَّه، ولتُقاتلنَّه.

وظلت زينب ترقب زوجها الغائب، وترجو أن يسلم ويستجيب لدعوة الحق والهدى، وتفكر في طِفلَيها، وكيف سيكون الحال لو أعرض وأبى، وصارت الهواجس تتوارد والظنون تتوالى؛ فساعة تفكر في أبيها، ولحظة تتأمل طفليها، ثم يعود بها الخيال للزوج الحبيب، والصاحب الغالي.

وعاد الزوج من أوبته، ووصل المسافر من رحلته، وأسرعت إليه الزوجة تخبره الخبر السعيد، وتبشره بالنبأ العظيم، ولكن الزوج أشلح بوجهه، وأعرض وأبى أن يُسلِمَ، وبقي على شره، إلا أن رباط الحب بين الزوجين مُتوغل في الأوردة، متأصل في قلبي الحبيبين.

---

(١) الاستيعاب، ١٤/ ١٧٨٨.

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح: ابن الملقن (٢/ ٢٨٥)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: الذهبي (١/ ١٣٢)، سير أعلام النبلاء (١/ ٢٠٢).

وبدأت رحلة أخرى في حياة الزوجين، فهما قريبان بعيدان، بينهما شوق وتَوق، ولكن دونهما حاجز أقوى من الحب، وحائل أشدّ من العواطف، وإرادة باعدت بينهما، فهي اختارت الإسلام، وهو بقي على الشرك، وصارت تناجيه؛ أسلم يا ابن الخالة، مالك يا أبا أُمامة، ألا تشفق عَلَيَّ، ألا ترحم الصغار، ألا ترى النور، مالك وللجاهلية، وأين عقلك من هذه الأصنام؟

ويطرق الزوج مفكرًا، ويسرح به الخيال، ويجنح به الرأي، ويبادره الشيطان بوسوسته، ماذا لو قالت قريش: إنه فارق دين آبائه إرضاءً لزوجته؟ ويطول السهر، والنجوى قائمة بين الزوجين، ويمتدّ النقاش، ولكن دون نتيجة، ويتمكن العناد من الزوج، فقد سيطرت العادات عليه، وغلبته وسوسة الشيطان، ويومًا بعد آخر، وهما قريبان بعيدان، فالهمُّ يزداد، والعناء يتواصل، ويغلب إبليس الرجل، ويمنعه من الدين والهداية.

ويودُّ رسول الله ﷺ لهذا الزوج الخير والهداية، فيعرض عليه الإسلام، ويدعوه إلى الإيمان، ولكنه يصمت عند رسول الله ويطرق، ثم يعود إلى زينب حزينًا مهمومًا، حائرًا مترددًا، فهي الحبيبة الغالية، وهي الرفيقة الصادقة، وهي الخائفة عليه من الشرك، الراغبة في هدايته، المتلهفة على إسلامه، ويتمتم الرجل، ويفاتح زينب بكلمات عذبة رقيقة، ولكنها حزينة باكية، خافتة هامسة؛ إذ يقول لها: يا أم علي، لقيت أباك اليوم ودعاني إلى الإسلام، وما تنتظره زينب ليكمل حديثه، بل تُسرع في السؤال –فالهوى يدفعها، والحب يزفها– بشرني ماذا أجبت أيها الحبيب الغالي؟

فيسكت الزوج، ويطأطئ رأسه ويهمهم. وتعلم الزوجة أنه ما زال على عناده، وأن الله لم يشرح صدره للإسلام بعد.

وتمضي الأيام ورسول الله ﷺ يزداد اتباعًا، والإسلام ينمو ويكبر، وقريش تقف دون الدعوة، وتتمادى في إيذاء الرسول ﷺ، وامتد أذاهم لأسرة المصطفى ﷺ، فقالوا: إنكم فرَّغتم محمدًا من همِّه، فردُّوا عليه بناته، وأشغلوه بهن، واسعوا لطلاقهن من أزواجهن.

إنه الأذى والبلاء، حتى العلاقة الزوجية سعى الكفار في خرابها، والرابطة بين المرأة وزجها عملوا على إفسادها، ومشوا إلى أبي العاص وزينوا له فراق زينب، ورغبوه في طلاقها، وحثوه على فراقها، وأغروه بكل الوسائل وعرضوا عليه أن يزوجوه بأي فتاة من قريش إن هو طلقها، وذكروا له صفات هذه وجمالَ تلك، وحسّنوا له وزيّنوا، إلا أن أبا العاص كان أكرم منهم، وكانت علاقته بزينب أقوى من الأحداث، وأمتن من أن تهزها تلك الإغراءات.

وقال لدعاة السوء والفرقة: بئس العرض عرضكم، لا والله لن أفارق الحبيبة، ولن أدع الصاحبة، وما أُحبُّ أنّ لي بسواها أي امرأة من قريش، ولو عرضتم كل فتاة، وهيأتم كل الأسباب فلن أترك أمَّ الأطفال ورفيقة الدرب، وزجرَهم وردَّهم.

وكان رسول الله ﷺ يثني عليه خيرًا.

وذهبت قريش إلى عتبة وعتيبة ابني أبي لهب، وقالوا لهما: طلقا ابنتي محمد: رقية وأمَّ كلثوم، واستجاب الشقيان، وعادت البنتان إلى بيت النبوة، وفارقتا بيت السوء والكفر؛ بيت حمالة الحطب (أم جميل بنت حرب) زوجة أبي لهب، التي قالت لولديها، وقد بلغ الحقد مبلغه: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلّقا ابنتي محمد. وما إن عادت الكريمتان إلى بيت النبوة، حتى تزوجتا بخيرٍ منهما.

وبقيت الرابطة الزوجية بين زينب وأبي العاص بن الربيع، وإن كان الإسلام قد فرّق بينهما، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، وظلت في داره تشهد الأحداث، وترى البلاء يتوالى على المسلمين، والأذى يتتابع على والدها وصحابته، وتسمع كلمات السوء يتفوه بها المشركون.

ألا ما أصبر تلك السيدة، فقد ذاقت مرارة الحياة وقسوتها، ورأت مع أخواتها سفهاء قريش وهم يتطاولون على رسول الله ﷺ، وينثرون على رأسه التراب، وتتسابق الأخوات الطاهرات يزيلن الأذى عن أكرم رأس وأعزّ إنسان، وأفضل البشر، وترقّ إحداهن وتبكي، وهي تزيل ذلك التراب، وتغسل رأس رسول الله، ويتأثر الحبيب لبكاء ابنته، فيقول: بنيَّتي، لا تبكي فإن الله مانعٌ أباك.

ويتنوع أذى المشركين ويزداد البلاء على رسول الله وصحابته، ويشتد الهمّ، ويتوالى الحزن بوفاة الأم الكريمة السيدة خديجة رضي الله عنها ووفاة العمّ أبي طالب، وتُعرف تلك السنة بعام الحزن؛ إذ فَقدَ رسول الله في ذلك العام الرجل الذي قال الرسول عنه: «**ما نالت قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب**»[1]. ورحلت وزيرة الصدق والوفاء.

وبعد ثلاث سنوات من عام الحزن، وبعد شهور من العناء والصبر، أذن اللهُ لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة، وبقيت السيدة زينبُ مع زوجها في مكة، واشتد البلاء، وازدادت عليها المعاناة، فالأحبة رحلوا، والذكريات تتجدد، تتلفت للأيام الخوالي والسنين الغابرة، حين كان رسول الله ﷺ على مقربة منها، يداعب أطفالها، ويناغي صغارها، وحيث كانت تركن لأمها السيدة خديجة، تبثها أشجانها، فتصبرها الأم، وتواسيها الحبيبة،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٨٨ رقم٥٩٤)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٢٤)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٥٠)، مرسل وسنده حسن.

وحيث الأخوات قريبات يبادلنها الحديث، ويشاركنها الهم، واليوم لا أحد إلا الأذى من المشركين، والوعيد من كفار قريش. لقد ظلت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في مكة، وترى قريشًا وهي تزداد قسوة وصلفًا، وتتذكر مقولة ورقة بن نوفل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده، إنك لنبيُّ هذه الأمة،... ولتُكذبنَّه، ولتؤذينّه، ولتُخرجنَّه، ولتُقاتلنَّه**». إنها ترى قريشًا تضطهد المسلمين؛ فهم ما بين مفتونٍ في دينه، ومعذَّبٍ في أيديهم، وهاربٍ في بلاد الله فرارًا منهم.

وتعيش المسكينة صراعًا داخليا، فزوجها مع المشركين في مكة، وأبوها يقود المسلمين في المدينة، ويتوزع قلب البنت، وتتشتت أفكارها.

آه لو أسلم الزوج لما كان هذا العذاب، ولما صار هذا الأسى، ولكنَّا مع المهاجرين في طيبة الطيبة.

وتتطور الأحداث بعد الهجرة مباشرة؛ فالمسلمون يتكاثرون، وراية الهدى تزداد منعة وقوة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقود الخير، فقد أذن الله -عزَّ وجلّ- بالقتال والانتصار لمن ظلم من المسلمين، وبُغي عليهم، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

وبدأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنازلة والحرب مع قريش، فلا خيار مع لا إله إلا الله محمد

رسول الله، ولا دين إلا الإسلام، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]. وتنطلق السرايا من المدينة تهاجم قريشا وتعود.

ويسمع رسول الله ﷺ أن أبا سفيان قادم من الشام بتجارة لقريش، ويندب المسلمين للغنيمة، ويقول: هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلكموها.

ويعلم أبو سفيان بما عزم عليه المسلمون، فيرسل ضمضم بن عمرو الغفاري على عجلٍ إلى مكة، يخبرهم أن محمدًا قد عرض لهم في أصحابه، ويصل الرجل إلى مكة، ويصيح في أسواق مكة، وقد جدع بعيره، وحول رحله، وشقَّ قميصه: اللَّطيمة، اللَّطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوثَ الغوث.

ويتسابق أهل مكة يتجهزون للحرب، وهم ما بين لابسٍ سلاحه، أو باحثٍ عن رجلٍ يذهب مكانه، ويخرجون إلى مصارعهم إلى معركة بدر المشهورة.

وتسمع زينب الخبر وترى زوجها يسرع مع الخارجين، ويتجهز لقتال والدها وصحابته، ويتمزق قلبها؛ فأبوها سيد البشر ﷺ يقود الجيش الإسلامي، وزوجها يخرج مع المشركين، ويضطرب فؤاد المسكينة، وتدور في نفسها أسئلة كثيرة؛ فهل يا ترى تتلاقى أسياف الأحبة؟ ومن القاتل؟ ومن المقتول؟ إنه اليتم لصغارها أو الثكل في أبيها.

ويغيب جيش مكة عن الأنظار، ولكن قلب المسكينة يعيش الأسى والألم؛ كيف ستكون المعركة؟ ومن الخاسر ومن الرابح؟ وتضم طفليها، وتناجي صغيريها. ألا ما أطول تلك الليالي! وما أثقل تلك الأيام! وما أمرَّ تلك الساعات! هداك الله يا أبا العاص، لو أسلمت لأرحتني، ولو آمنت لكنتُ وإياك هناك مع الأحبة، لقد قسوتَ على نفسك وعلى طفليك ورفيقة دربك.

وتتحسس البنت الأخبار، وما أمرّها من أخبار؛ إنها يُتم الصغيرين، أو... لا لا لا، وقاكَ الله يا أبي، لقد صدق ورقة بن نوفل حين قال:... ولتُكذبنَّه، ولتؤذينّه، ولتُخرجنَّه، ولتُقاتلنَّه. ولقد قلت ذات يومٍ وقولك الحق: إن الله مانعٌ أباك.

إن الله مع أبي ناصره ومعُزَّه، وإن معه أصحابًا لن يسلموه، وحوله رجال يفدونه بذواتهم، وقد صدق ظنها.

روى ابن هشام أن رسول الله ﷺ عدّل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يديه سهم يُعدِّل به القوم، فمرّ بسواد بن غزيَّة وهو مُتقدم من الصف، فطعن بطنه بالسهم، وقال ﷺ: «**استوِ يا سواد**».

فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني؛ أي اقتص لي من نفسك.

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «**استقد يا سواد**».

فأكبَّ سواد يقبل البطن الطاهر، واعتنق سواد خصر الكريم، يلثمه ويشمه ويتمسح به، وأحسبه قد اغرورقت عيناه بالدموع.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**».

قال سواد: يا رسول الله لقد حضرت ما ترى، ها هو الموت قاب قوسين أو أدنى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

هؤلاء هم صحابة رسول الله، وهؤلاء هم رفاق المصطفى ﷺ في السلم والحرب، وأحسب زينب بقيت ساهرة ليلها، باكية نهارها، تحدث نفسها وتناجي ذاتها، إن الله مع أبي؛ إن الله مع الخير ناصره.

وهو ما كان، فحين حان موعد اللقاء خفق رسول الله ﷺ وهو في العريش؛ أي نام نومًا يسيرًا، ثم انتبه فقال لأبي بكر -وهو بالقرب منه-: «**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذٌ عنان فرسٍ يقوده على ثناياه النقع**»؛ أي الغبار، والتقى الجيشان، وانتصر المسلمون.

وبينما أهل مكة يترقبون الأخبار؛ إذ جاء الحَيسُمان بن عبدالله الخزاعي، وصاح ونادى: الهزيمة الهزيمة، أُسر فلانٌ وفلانٌ، وقُتل فلانٌ وفلانٌ. ولما جعل يعدِّدُ القتلى قال صفوان بن أمية، وهو قاعد في الحجر: والله إن يعقل هذا، فاسألوه عني.

قال الحيسمان: ها هو ذاك جالسًا في الحجر، وقد -والله- رأيت أباه وأخاه حين قُتلا[1].

وأسرعت عمّة المصطفى ﷺ عاتكة بنت عبد المطلب إلى السيدة زينب تخبرها الخبر السعيد، وتقول لها: لقد انتصر أبوك، وهُزمت قريش، وقُتل صناديدها.

وتفرح السيدة زينب بانتصار المسلمين، وغلبة الإسلام، وسلامة أبيها، ولكنها تتذكر زوجها، وترمق طفليها، وتذرف دموع الأسى على الزوج، فقد ظنت أنه قتل، وأن اليتم لازم طفليها، وأن الشقاوة غلبت أباهما.

وتبشرها السيدة عاتكة، بأن أبا العاص لم يُقتل، وأنه وقع أسيرًا لدى المسلمين، ويخفق قلب السيدة زينب، وتعلوها النشوة، وترد الأخبار تباعًا بأن فلانًا قُتل، وفلانًا أُسر، وفلانًا سيفديه أهله وذووه.

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي (٢/ ٣١)، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (٤/ ٦٦)، والثقات: ابن حبان (١/ ١٧٧).

ويعود المسلمون إلى المدينة بالأسلاب والغنائم، وبالجرحى والأسرى.

وينظر رسول الله ﷺ إلى الأسرى، ويتعرف عليهم، ويرى صهره بينهم، ويفرقهم بين أصحابه، ويستبقي صهره عنده في بيت النبوة.

ويتوافد على المدينة أقارب الأسرى يُفدون بألوف الدراهم، فأبو وداعة بن ضبيرة السَّهمي أسرع إليه ابنه المطلب، وفداه بأربعة آلاف درهم، وعاد به إلى مكة.

وأنّى لزينب بالمال فماذا تعمل وقد رقّت مشاعرُها، وغلبتها عواطفُها حين رأت الوفود ذاهبة إلى المدينة، وعائدة بأسراها، وفتشت عن المال فلم تجده، وهداها تفكيرها إلى أعزّ ما تملك، ووجدت أن أثمن ما لديها تلك الهدية التي تحفظها منذ سنين، والتي تُذكِّرها بأمها السيدة خديجة رضي الله عنها، فغَلَّفَت تلك الهدية، وسلمتها لعمرو بن الربيع أخي زوجها، وقالت: اذهب إلى المدينة وقدِّم لرسول الله هذه الصرَّة فداء لأخيك.

وسافر الأخ إلى المدينة، ووصل رسول زينب إلى طيبة الطيبة، وقابل رسول الله ﷺ والصحابة عنده، وقال: بعثتني زينبُ لفداء زوجها أبي العاص بن الربيع، وأمرتني أن أقدِّم هذه الصرّة فداء لزوجها.

وظنّ الحضور أنها دراهم، وحسبوها نقودًا تحفظها الزوجة لزوجها الأسير، وأرسلتها فداء له، ولكن ما إن فُكت أربطة الصرَّة، وحُلَّت أغلفتها حتى بدت القلادة القديمة التي كانت للسيدة خديجة.

ولما رآها رسول الله ﷺ عرفها، وتحركت عواطفه، ورقّ لها رقّة شديدة، وخفق لها قلبه، واهتزت مشاعره. لقد كانت قلادة الحبيبة، وزيرة الصدق والعون يوم الضيق، السيدة خديجة رضي الله عنها التي أهدتها للبنت الغالية ليلة زفافها قبل الإسلام.

وأطرق الحضور خُشَّعًا؛ لروعة الموقف، ورقّة المشهد، وطراوة العواطف، وندى الأيام، وذكرى السنين.

إن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبٌ وإنسان، من لحمٍ ودم، وكبدٍ وقلب. وها هي ابنته في مكة يخفق قلبها، وتلك زوجته السيدة خديجة يستعيد ذكراها، وكأنها على البعد تهتف بصوتٍ شجي: اعطف يا رسول الله، استجب يا نبي الله، إنها هدية بُنيَّتنا، ونداء حبيبتنا، ورائحة كبدنا.

وتهتز مشاعر المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتغلبه عواطفه، ويقول في رقة وحنان مخاطبًا أصحابه بفصاحة وبيان: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردُّوا عليها ما لها فافعلوا.

حنانيك ربَّاه ما أروع هذا المشهد!

رحماك إلهي ما أرقّ هذا الموقف!

إن الجبال لو وعته لسالت رقَّة!

وإن الحديد لو أدركه لذاب حسرة!

ابنتك يا سيدي يا رسول الله تتعذب هذا العذاب، وتعيش هذا الأسى، وتتألم هذا الألم، وأنت أيها الحبيب تتأثر وتعيش لوعة الفراق، وأسى الموت، وذكرى الأحبة.

بأبي أنت يا سيدي يا رسول الله، حتى أصحابك في هذا الموقف تتلطف معهم وترجوهم أن يفعلوا.

والله لو كانت قلوبنا حجارة لرقّت، أو صخرًا للانت؛ ولهذا قالوا على الفور: نعم يا رسول الله، وأطلقوا الأسير، وردوا على زينب قلادتها.

وقَرُبَ أبو العاص بن الربيع من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهمس رسول الله في أذنه، ولم يعلم الحضور ماذا قال له، إلا أنهم علموا أن رسول الله أثنى عليه خيرًا في مصاهرته.

وعاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة يحمل قلادة الحبيبة زينب، ووصل الزوج، وهبّت زينب فرحة بسلامته، وأسرع الصغار يقبلون أباهم ويعانقونه. وما إن استراح من عناء السفر ووعثاء الطريق؛ حتى صار يقصُّ عليها ما مرّ به من أحداث، ويخبرها بما همس به رسول الله في أذنه، فقد أمره المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجهزها للسفر والهجرة إلى المدينة.

وفرحت زينب، وظنّت أن الزوج قد شرح الله صدره للإسلام، إلا أن أبا العاص أخبرها أن رسول الله أعلمه أن الإسلام لا يجيز له أن يستمر معها، ولا بدّ من رحيلها إلى المدينة، وأنه الفراق ولا طلاق، وأنه ما زال على عقيدة الآباء والاجداد، وأنها ليالٍ وسوف يحضُرُ وفدٌ من المدينة ليصحبها في السفر.

وأحسب زينب ناجت أبا العاص وهو الحبيب الغالي، وقالت له: لِمَ هذا الصدود وهذا الإعراض! ألا ترى الإسلام يزداد قوة ومنعة؟ ألم ترَ السماحة والعطف من المسلمين؟ ألا تشعر بالحبِّ والحنان الذي نُكنُّه لك؟ ألا ترحم صغارك؟ ألا تشفق على أكبادك؟ ألم ترَ صناديد قريش وقد ذُلوا وقتلوا؟

ولكنه يطرق ويصمت، ويبقى حائرًا مترددًا، ويظل قلقًا مضطربًا تتجاذبه الأهواء، وتتنازعه العواطف.

وتسأله زينب ومتى الرحيل، وكيف سيكون السفر، ومع من تكون الرفقة، وإلى متى هذا العذاب والألم؟

ويجيبها: إن هي إلا أيام وسوف يحضر زيد بن حارثة ورجل من الأنصار، ليرافقاك في المسير إلى المدينة.

وتبدأ زينب في الاستعداد للسفر والتجهز للحاق بأبيها.

وتأتيها هند بنت عتبة، وتقول: يا بنت محمد، بلغني أنكِ تريدين اللحاق بأبيك.

قالت زينب: ما أردت ذلك.

قالت هند: يا ابنة عمي؛ لا تفعلي، إن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك، فإن عندي حاجتك، فلا تستحي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال.

قالت زينب: والله ما أراها قالت ذلك إلَّا لتفعل، ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك، وتجهزت.

ويحقّ لزينب أن تخشى هندًا، فقد قتل المسلمون في بدرٍ أباها عتبة، وعمّها شيبة، وأخاها الوليد، وعددًا من أبناء عمومتها. وسمعتها زينب هي تصيح في قريش وتولول بالثأر والانتقام، وتؤجج نار الحرب على رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

وفرغت زينب من تجهيز نفسها للسفر، وحان موعد الظعن، وقربت ساعة الرحيل، ولم يتحمل أبو العاص مشهد الفراق، وساعة الوداع، فحبُّ زينب وطفليه يملأ عليه الأفق، ويضغط على كل عاطفة من عواطفه، وكل خلية من خلاياه؛ ولهذا اتفق مع أخيه كنانة بن الربيع على الخروج بها إلى بطن يأجج، وهو موضع على بعد ثمانية أميال من مكة؛ حيث سيجد هناك زيد بن حارثة وصاحبه، وتحرك الركب الصغير، وركبت الطاهرة بنت الطاهر البعير، وأخذ كنانة قوسه ونباله، وخرج بها نهارًا يقود البعير وهي في الهودج.

وعلمت قريش بسفر زينب، وتحدثوا عن رحيلها، وندب بعضهم بعضا؛ هذه بنت غريمنا تسير إلى يثرب، فأسرع أشقياؤهم يتقدمهم هبَّار ابن الأسود بن المطلب، ومعه نافع بن عبد قيس، وروّعوا المرأة المسكينة، ونخس هبَّار بعيرها، فألقاها البعير على صخرة، وكانت حاملًا، فطرحت جنينها، ونزفت الدماء من جسدها الطاهر رضي الله عنها.

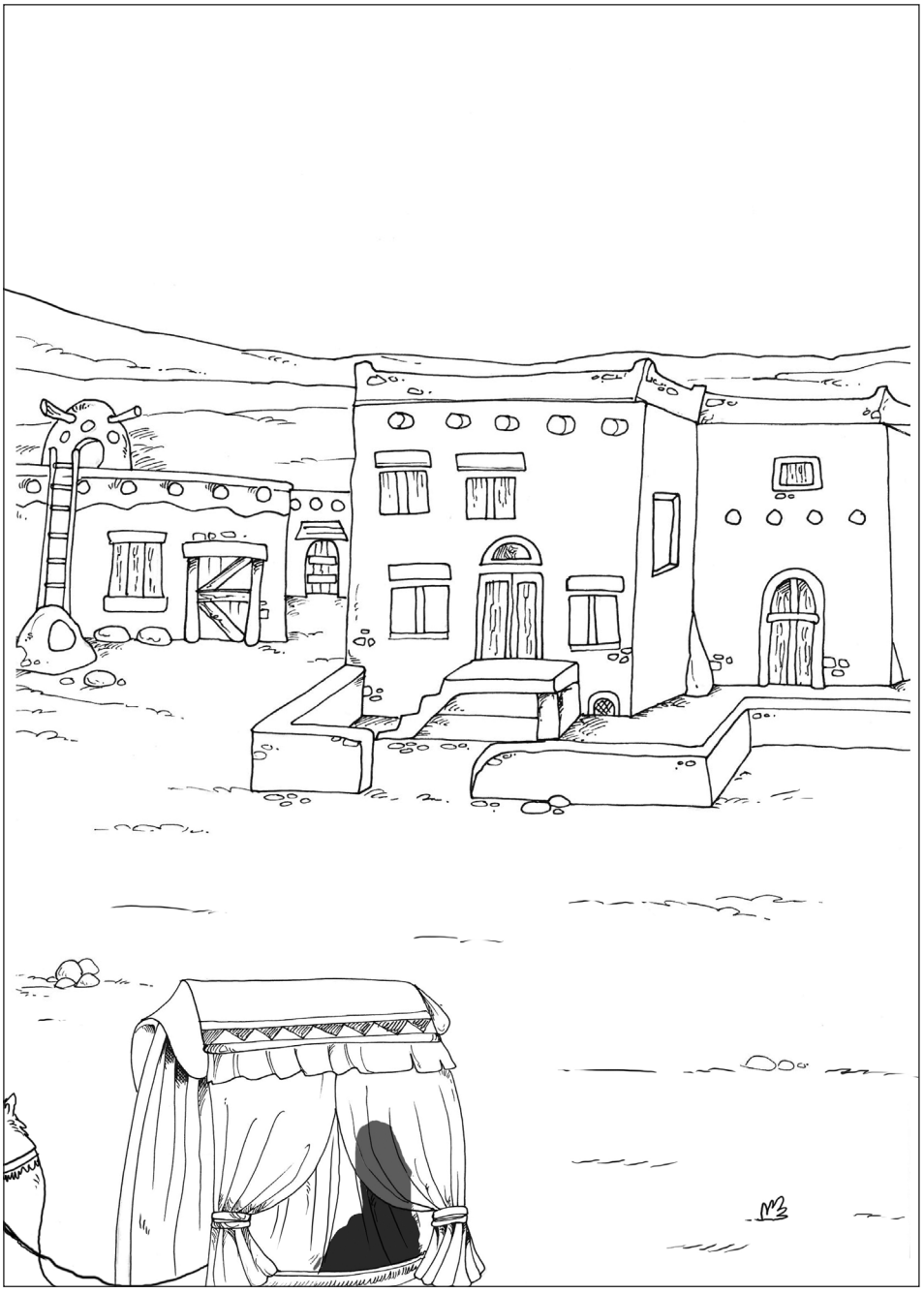

وعند ذلك برك كنانة بن الربيع، وصوّب سهامه وهو يزأر ويتوعد، ويقسم ألا يدنو رجل إلَّا وضع السهام في نحره.

وتراجع المطاردون، وأقبل أبو سفيان في جُلّة من قريش، ونادى: يا كنانة اسمع مني، وكفّ نبالك حتى أُكلمك.

قال كنانة: وما عساك قائل؟

قال أبو سفيان: إنك لم تُصِب يا كنانة، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذلٍّ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأن ذلك منَّا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها حاجة، ولكن ارجع بالمرأة حتىإذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أن قد رددناها، فسُلَّها سرًّا، وألحقها بأبيها.

وتمنع كنانةُ بن الربيع بادئ الأمر، ولكنه سمع أنين زينب، ورأى الدماء تنزف من جسدها الطاهر، وقد أسقطت جنينها، فأشفق عليها، وتراجع عن قراره، وعاد بها إلى زوجها.

وبقي أبو العاص بن الربيع يرعى زينبَ ويلازمها أيامًا حتى تهدأ العيون.

وأسرعت هند بنت عتبة تعيِّر أولئك النفر الذين روّعوا زينبَ وتزدريهم بكلمات السخرية والاحتقار، وتقول لهم: أهنا الفتوة والرجولة يا أشباه الرجال! أهنا المنازلة والمناطحة مع الفتاة العزلاء! أأعيرةٌ في السلم، وفي الحرب نساء حُيَّض.

أَفي السِّـلمِ أَعيـارٌ جفـاءً وغلظـةً وفي الحربِ أَشـباهُ النِّساءِ العَوارِكِ

وبعد أن هدأت النفوس، وخجل أولئك النفر من أنفسهم، ومن تقريع هند لهم، خرج كنانة مرّةً أخرى، وانطلق بها وقد أمسك بزمام الراحلة وعقد العزم على المنازلة والتحدي، وغاب عن الأنظار وهو يتغنى ببيتين من الشعر، ويقول:

عجِبتُ لِهَبَّارٍ وأوباشِ قومِهِ يريدونَ إخفاري ببنتِ محمدِ
ولستُ أُبالي ما حَييتُ عَديدَهم وما استجمعتْ قبضًا يَدي بالمُهنَّدِ

وسار كنانة بالمرأة في هودجها، ولم يعترضها أحد، حتى سلّمها لزيد ابن حارثة وصاحبه، فأمَّ بها طيبة الطيبة، ووصلت إلى بيت المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعلم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما فعل هبَّارٌ وصاحبُه، فغضب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابنته، وساءه ما فعل أولئك الأوباش، وبعث سرية من الصحابة، وقال لهم: إن ظفرتم بهبَّار بن الأسود أو الرجل الآخر الذي كان معه فحرّقوهما بالنار.

ولما كان الغد غيّر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأيه، وأرسل لأولئك النفر، وقال لهم: إني كُنت أمرتكم بتحرق هذين الرجلين إن أخذتموهما، ثم رأيت أنه لا ينبغي لأحد أن يعذب بالنار إلا الله، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما.

وظلت زينب وطفليها في بيت النبوة يرعاهم رسول الله، ويرقبهم المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأحسب زينب ظلت تفكر في زوجها وتدعو له بالهداية، وترجو له الخير، فلم تيأس من رشده وهدايته.

وبقي أبو العاص في مكة يغدو ويروح، وأخالُ جسمَه في مكة، وعقلَه في المدينة مع زينب وطفليها؛ عليٌّ، وأُمامة. ولعله أشغل نفسه بالسفر والترحال، والبيع والتجارة، وابتعد عن قريش وائتمارها برسول الله وصحابته رضوان الله عليهم.

ومضت ست سنوات مليئةٌ بالأحداث الجسام، وحبلى بالصراع والصدام المسلح بين الإسلام والكفر، بين المدينة ومكة.

واشتد الصراع، فقوي الخير، وأفل الكفر، وزهق الباطل، ونما الحق، وتضاءل الشرك، وعلت راية الإسلام، وتصاغرت راية الكفار، وضيق المسلمون الخناق على المشركين، وشدوا لهم كل مرصد، وتربصوا لهم في كل طريق.

وأقبلت الوفود على المدينة ينشدون الهداية، ويعلنون الإسلام، وتقاطر الناس على طيبة يسألون عن رسول الله ﷺ، ويعلنون إسلامهم، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وكانت زينب رضي الله عنها ترقب القادمين، فلعل أبا العاص يَفِدُ مع الوافدين، ويُسلم مع القادمين، لقد كانت مشاعرها موصولة بمشاعره، وعواطفها ممزوجة بعواطفه، وكانت تتخيله وقد دلف الدار، وتتوسمه وقد جاء موحدًا ومكبرًا.

وطال الانتظار، ومضت الأيام، وغابت الشهور، وانمحت الأسابيع، والغائب مقطوعةٌ أخباره، والحبيب آفلةٌ كواكبه.

وانغمس أبو العاص في تجارته، وازداد عند قريش قبولًا، فقد اشتهر بالأمانة، وعرف بالصدق، فأمّنه أهل مكة على أموالهم، وفي ذات مرة وقبيل فتح مكة، خرج بماله وأموال لرجال من قريش، أبضعوها معه إلى الشام، ولما فرغ من تجارته في الشام، وقفل عائدًا إلى مكة لقيته في الطريق سرية لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وغنموا جميع ما لديه من أموال، وأعجزهم هربًا، وعادت السرية إلى المدينة بما أصابت من أمواله.

وضاقت على أبي العاص الأرض بما رحبت، وبات صفر اليدين، ولم يدرِ ماذا يفعل،

هل يتوجه إلى مكة، وقد أخذت أمواله، وماذا يقول لرجال قريش الذين ائتمنوه، وهل سيصدقونه؟

وأحسبه قد أطرق يفكر في مصيره، وقد صار صفر اليدين، فحتى الراحلة والزاد فقدهما، فكيف العمل؟! وما الحيلة؟ وماذا يعمل؟

وهدته عواطفه للحبيب القريب، وساقته مشاعره للأحبة في المدينة النبوية، فبينه وبين بيتٍ فيه خيوط من الود، وروابط من الحب، تدفعه إليهم دفعًا وتسوقه إلى ساحتهم سوقًا.

إن هناك أُم علي وأمامة، فلديها الأمن والأمان، هي ابنة الخالة، وأم الأطفال، القلب بقلبها موصول، والعواطف بعواطفها ممزوجة، وأيقن أن لديها الإجارة والنجدة، وعندها الغوث والمساعدة.

وفي ليلة ليلاء، وبعد أن هدأ السمار، وأظلمت الطرقات، دخل الرجل المدينة على حين غفلة من أهلها، يخفي حركاته، ويكتم أنفاسه، وينشد بيت الحبيبة السيدة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويكاد يمشي على أصابعه، وأحسب خياله سبقه إلى زينب، ولعل قلبه قد أسهر زينب، وأرّق الأطفال، وباتت تتحرى طيفه، وتتوقع قدومه كلما هبّ النسيم، وكلما تحرك باب الدار.

وكأني بأبي العاص وقد اقترب من الدار، يهمس: زينب، يا زينب.

ردي أيتها الحبيبة.

ارحمي أيتها الرفيقة.

أجيبي يا أُم عليٍ.

افتحي يا ابنة الخالة.

وأخال زينب سمعت النداء، واقتربت وقد وَجَفَ قلبُها، وخفق فؤادها؛ أهذا نداء أبي العاص؟! وهل هي في يقظةٍ أو في منام؟! وهل هي في حقيقة أو في خيال؟

واقتربت زينب من الباب، وقالت: أأبا العاص؟

وأجاب أبو العاص من الخارج بصوت شجيٍ منكسر: إي والله، أنا أبو العاص.

وفتحت زينب الباب، ودخل وهو شاحب اللون، مذعور الفؤاد، كسير الجناح، ولعله جثا على ركبتيه، وأطرق حزينًا، وجفّ لسانه عن القول والكلام.

وأظنها سألته، ما لك يا أبا علي، تكلم ما القصة؟ وما الحكاية؟ ولِمَ في هذه الليلة الظلماء أراك تهمس كأنك تخشى المارّة، وأحسبك تُطارَد وتُلاحَق، ولعلك مذعور.

تكلم أيها الغالي، تحدث يا ابن الخالة.

بشِّرني أهو الإسلام والهداية؟

وسكت الرجل، وأطرق المسكين، فماذا يقول وهو لا يزال على كفره وضلاله، ولا يزال في غيِّه وعناده.

وتُلحُّ في القول والسؤال.

ويقطع عليها الجواب صوتُ بلال ينادي لصلاة الفجر:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أشهدُ أن لا إله إلا الله، أشهدُ أن محمدًا رسولُ الله.

حيَّ على الصلاة، حيَّ على الصلاة.

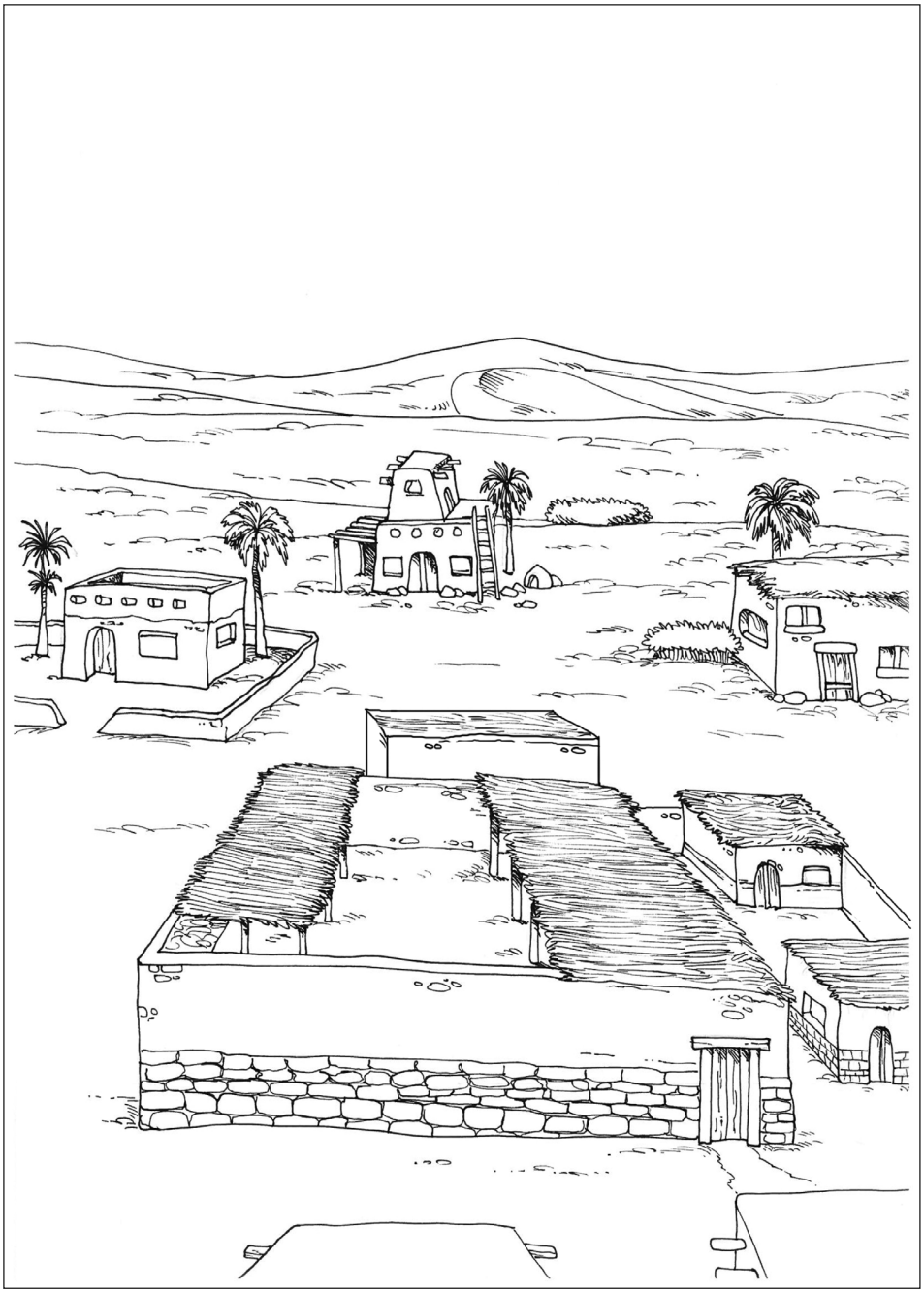

حيَّ على الفلاح، حيَّ على الفلاح.

الصلاة خيرٌ من النوم، الصلاة خير من النوم.

الله أكبر، الله أكبر.

لا إله إلا الله.

وتُنصت زينب وأبو العاص لهذا النداء الطري، ويسمعان همهمة المصلين، ويُحسَّان بخطوات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يخرج إلى المسجد ليصلي بالمسلمين، ويتشجع أبو العاص ويتحدث، ويقول: كلا يا زينب لم آت مُسلمًا، وإنما جئتك يا ابنة الخالة مستجيرًا، إني مطارد وهارب، وقد لجأت إليكِ يا أُم علي، فأجيريني.

ويقصُّ على زينب القصة، وكيف سار إلى الشام وعاد، وكيف لقيته سرية فيها زيد بن حارثة ومعه مئةٌ وسبعون رجلًا من المسلمين، فأصابوا كل ما كان معه، وكيف فرَّ منهم متخفيًا حذرًا، ينشد الغوث والمساعدة.

ويسكت وينتظر منها الجواب، ولكنه يجزم بالإيجاب، فبينه وبينها عواطف ممزوجةٌ بالحب، مجلوّةٌ بالود، لم تَزِدْها الأيام والهجر إلا شوقًا ومتانة.

ويرفع بلال صوته بإقامة الصلاة، ويسمعون صوته الرخيم ينداح عليهم من كل ناحية:

الله أكبر، الله أكبر.

أشهدُ أن لا إله إلا الله.

أشهدُ أن محمدًا رسولُ الله.

حيَّ على الصلاة.

حيَّ على الفلاح.

قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة.

الله أكبر، الله أكبر.

لا إله إلا الله.

ويتقدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المحراب للصلاة، ويُكبِّر، فيُكبِّر الناس معه، ويجهر بالقراءة، ويخشع المصلون من ورائه.

وعلى عجلٍ تلتفت زينب إلى أبي العاص، وتقول له: لقد أجرتك يا أبا علي.

وتهب مسرعة، وتفتح الباب، وتصيح بأعلى صوتها من صفَّةِ النساء[1]، وتقول: أيها الناس، أيها الناس: إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

ويحمل نسيمُ الفجر هذا الصوت الناعم، وتنقل خيوطُ الصبح هذا النداء الصادق. ويسمع المصلون الصوت الممزوج بعواطف الحب والحنان، ويعرفون مصدر النداء المشوب بالشجى والوجدان، ويتردد الصدى في ذلك المكان الطاهر.

ولما انتهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصلاة، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أقبل على المصلين وخاطبهم، وقال: «**أيها الناس، هل سمعتم ما سمعت؟**».

---

(١) أي من جهة صُفَّةِ النساء: وهو مكان مظلل في المسجد النبوي كان يأوي إليه فقراء المهاجرين.

فأجاب المصلون: نعم يا رسول الله، سمعنا الصوت، وعرفنا مصدره.

وعند ذلك أقسم لهم ﷺ وقال: «**أما والذي نفس محمدٍ بيده، ما علمت بشيء من ذلك، حتى سمعت ما سمعتم**»، ثم أردف ﷺ، -وهو الأب العطوف، والإنسان الرحيم- وقال: «**إنه يُجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت**».

ثم انصرف رسول الله ﷺ وصحابته من المسجد، وتوجّه ﷺ إلى السيدة زينب، ودخل عليها وعندها أبو العاص بن الربيع، فما كادت ترى الرسول حتى هتفت ضارعةً، ونادت متوسلة: يا رسول الله، إن أبا العاص إن قرُب فابن عم، وإن بعُد فأبو ولد، وإني قد أجرته.

لك الله أيتها الكريمة، ما أرقّك وأعظمك، وما أعطفك وأحنَّك.

بادلتِ زوجكِ حبًّا بحب، واستجبْتِ لعواطفك، ولبَّيتِ دعوةَ المستجير، وتعلّمتِ الخُلُقَ العظيم من الرجل العظيم.

وينظر رسول الله ﷺ إلى الزوجين الواهين، ويُدرك مدى الحب الذي يربطهما، والود الذي يجمعهما، ويقول: «**أي بُنيّة، أكرمي مثواه، ولا يخلُصَنَّ إليك، فإنك لا تحلِّين له**».

ويمضي رسول الله ﷺ لشأنه، ويبقى أبو العاص لدى السيدة زينب رضي الله عنها تُكرم مثواه، وتُجل ضيافته. وأحسبه أمضى الوقت يناجي طفليه، ويُداعب صغيريه، وأخال السيدة زينب رضي الله عنها ظلّت تلح عليه، وترغبه في الإسلام، وتحضُّه على الإيمان، وتناجيه: لِمَ هذا العذاب، وإلى متى هذا الهجران؟

وأطرق المسكين وهَمهمَ، وقال: يا أُم علي، لقد عرض المسلمون عليَّ بالأمس الإسلام،

وقالوا: هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال؛ فإنها أموال المشركين؟ وأبيت، وقلت: بئس ما أبدأ به الإسلام أن أخون أمانتي.

وأدركت زينب أنه اقترب من الخير، وأنه على وشك الهداية، وازداد أملها، وعظُم رجاؤها.

ولما ارتفعت شمس ذلك اليوم المبارك، وتحرك الناس ونشطوا لشؤونهم، بعث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى رجال السرية، ودعاهم إلى الحضور، فأقبلوا إليه سراعًا، وحضر معهم أبو العاص بن الربيع.

وقال لهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إن هذا الرجل منَّا حيثُ قد علمتم، وقد أصبتم له مالًا، فإن تُحسنوا وتَردُّوا عليه الذي له، فإنا نُحب ذلك.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ترجو صحابتك، وتترفَّق برجالك، وتتلطّف إليهم أن يستجيبوا، وتصرح لهم بحبِّك ورغبتك في العطف على أبي العاص بن الربيع، وتخشى أن تكون لهم الرغبة في الاحتفاظ بهذا الفيء، والإبقاء على هذه الغنيمة، فتترك لهم الخيار، فهو عطاء الله ورزقه، فلا تثريب ولا عتاب، وتقول لهم: وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء به عليكم، فأنتم أحقُّ به[1].

حقًا إنك على خلق عظيم، وإنك سيِّدُ الرحماء.

وكما قال فيك شوقي:

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٢/ ٤٢٦ رقم١٠٥٠)، والحاكم (٣/ ٢٦٢ رقم٥٠٣٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٨٥)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٨)، وتاريخ الطبري (١١/ ٥٠٠) وتاريخ الإسلام للذهبي (١/ ٢٣٩).

وَإِذا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ هَـذانِ في الدُّنْيـا هُمـا الرُحَمـاءُ

لقد كان الصحابة يعلمون بثناء الرسول على أبي العاص في مصاهرته؛ إذ كان يقول ﷺ: «**حدثني أبو العاص فصدقني، ووعدني فوفَّى لي**»(١).

لقد وعد أبو العاص النبي ﷺ بعد فكّ أسره إثر معركة بدر ببعث زينب رضي الله عنها إلى المدينة، فوفى بوعده، وفارقها مع حبّه الشديد لها، وولهه على فراقها.

واستجاب الصحابة لرغبة الرسول ﷺ، وقالوا جميعًا: نردُّ الفيء يا رسول الله، نردُّ الفيء يا رسول الله.

واندفع أولئك الأخيار يعيدون المتاع، ويحضرون البضاعة، حتى إن الرجل منهم يأتي بالدلو، وبالسقاء البالي، وبالإناء الصغير، وبالخشبة العقفاء. ردُّوا عليه ماله بأسره، ولم يُفقَد منه شيءٌ.

إنهم ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وأحبوا المصطفى ﷺ حبًا لو كان فوق الأرض لأظلَّه أو تحتها لأقله.

واجتمع لدى أبي العاص جميع ما غاب، وتكامل ما أُخذ، واطمأن على المسير، وأمن الطريق، وودّع الأحبة، ونوى الإيمان، وعقد العزم على العودة، ولكنه كتم ذلك.

آه ما أقسى ذلك الرجل على نفسه وزوجته وأطفاله!

ودفع رواحله إلى مكة تتهادى؛ آمنةً في طريقها، حاملةً جميع البضائع التي قدم بها من الشام.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢ رقم٣٧٢٩).

ووصل خبر وصوله إلى مكة، واستبشر أصحاب الأموال بسلامة بضائعهم وربح تجارتهم، وتحدثوا عن أمانته، وأشادوا بوفائه، وأكبروا شهامته، فقد استلم كل ذي حقٍ حقَّه، وأخذ كل ذي بضاعة بضاعته.

وأحسبهم تعجبوا وتساءلوا كيف نجت القافلة، وكيف عادت التجارة بعد أن جاءهم الخبر باستيلاء أصحاب محمدٍّ عليها.

ولما انتهى من تسليم تلك القافلة صاح بأعلى صوته، وانطلق ينادي في كل حي، ويهتف في أهل مكة، ويقول: يا أهل مكة، يا رجال قريش، هل وفيت وأدَّيت؟

هل بقي لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه؟

قالوا: لا، وجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا.

وربما قال آخر: متى السفرة القادمة؟ ومتى الرحلة الأخرى؟ فلدينا الأموال، وأنت المأمون، ولدينا البضاعة، وأنت الوفي.

وعند ذلك صدع بالحق، وأعلن إسلامه، ورفع الصوت وكبَّر وجهر وقال: إذن يا أهل مكة، اسمعوا ما كنت أحيد عنه، واعلموا بزوال ما ران على قلبي، وذهاب ما غشى بصري، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

والله ما منعني أن أعلن إسلامي في المدينة إلا تخوّفًا من أن تظنوا أنني إنما أردت آكل أموالكم، فلما أدَّاها الله إليكم، وفرغت منها فها أنا أعلن إسلامي، وأبرأ منكم ومن الشرك.

ووجم كفار قريش، وذُهل رجال مكة، ولم يجرؤوا على الذم واللوم، ولم يتفوهوا بالنقص والازدراء، وسكتوا وخرسوا، وما قالوا ولا عابوا.

وبات أبو العاص يستعد للهجرة إلى المدينة، إلى الأحبة والأحباب، إلى الخيرين الأخيار، وانطلق يستحث الخطى يهرول براحلته، يدفعه الشوق رافع الرأس، وَلِهَ الفؤاد، ينهب الأرض نهبًا، يطوي الوهاد، ويقطع الأميال، ووصل إلى يثرب الطيبة، وتوجه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لينطق بين يديه بالشهادة، ويعلن أمامه الإسلام، ويسأل الله المغفرة، ويرجو ربّه الرحمة.

ويخفق قلبه للحبيبة الغالية زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إنه يريد قربها، وينشد بيتها، ويهوى عشَّها، ويحنُّ لفؤادها، هي رئته التي يتنفس بها، وهي عينه التي يبصر بها.

لم يطلب سواها، ولم يفكر في غيرها، أغرته قريش بطلاقها، ورغَّبته في سواها، فأبى وامتنع.

لقد ملكت الحبيبة مشاعره، وسيطرت الغالية على عواطفه، وبادلها بالحبِّ حبًّا، وبالشوق شوقًا، وصبر كما صبرت، وتعذّب كما تعذّبت.

وأسرع يسأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن زينب، فهي الزوجة الغالية، وهي ابنة الخالة العزيزة، وهي أم ولديه، أريد قُربها، وأُريد حنانها، وأنشد هواها، فهل تأذن يا رسول الله بالذهاب إلى زينب؟

ويكرمه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينطلق به إلى بيت الغالية السيدة زينب؛ ليجمع شمل الأحبة، ولتلتقي القلوب بعد الفراق، ولتجتمع العواطف بعد الشوق، وتمتزج دموع الفرح بدموع الدلال.

ويعود الزوجان بعضهما لبعض، وقيل ردّها بنكاح جديد.

ويأنس الزوجان، ويفرح الحبيبان، ويعود لهما الأنس والسرور، ويُغردُ الصغيران؛ عليٌّ، وأُمامة بين الأبوين، ويدرجان في حضن الحبيبين.

وتمضي الأيام سراعًا، وترحل الشهور تباعًا، وبعد عام من عودة الحبيب، وإسلام الزوج، واجتماع الشمل، يشتد المرض على زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ثم يكون الفراق الدنيوي، وترحل الحبيبة وهي في الثلاثين من عمرها بعد أن قرّت عيناها بإسلام زوجها أبي العاص بن الربيع.

ويحزن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لفراق زينب، ويأسى لرحيل الغالية، ويجلس عند قبرها مهمومًا محزونًا، ثم يسرِّي عنها ويقول: كنت ذكرت زينب وضعفها وعذاب القبر، فدعوت الله ففرج عنها[1].

ويلتاع أبو العاص لفراق الحبيبة الوفية، ويشتد حزنه، ويبقى مع طفليه؛ عليٍّ، وأُمامة يرعاهما، ويخفق قلبه لهما، فهما بقية زينب، وهم رائحة زينب، وهما عطر زينب.

كما يجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الطفلين السلوة والعزاء، فكان يأنس بهما، ويحمل أُمامة على عاتقه وهو يصلي، فإذا سجد وضعها، وقضى صلاتها، ثم يعود فيحملها.

وازداد حبُّه لأُمامة، وتعلّق بهذه الصغيرة، فهي بقيَّة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ تربّت في أحضانه، وشبّت في رحابه، فصار يخصّها بالعطف والحنان.

تقول السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُهدي إلى رسول الله هدية فيها قلادة من جزع، فقال: لأدفعنّها إلى أحب أهلي إليَّ.

فقالت النساء: ذهبت بها ابنة أبي قُحافة.

---

(١) التذكرة للقرطبي (ص١٣١).

لكن رسول الله ﷺ دعا أمامة بنت زينب، فعلّقها في عنقها[1].

وفي رواية أخرى: «قدِمَتْ على النَّبيِّ ﷺ حِلْيةٌ من عندِ النَّجاشيِّ، أَهْداها له، فيها خاتَمٌ من ذهَبٍ، فيه فَصٌّ حَبَشيٌّ، فأخَذَه النَّبيُّ ﷺ بعودٍ، ببعضِ أصابِعِه مُعرِضًا عنه، ثُم دعا أُمامةَ بنتَ أبي العاصِ ابنةَ ابنتِه، فقال: تَحَلَّيْ بهذا يا بُنَيَّةُ»[2].

وبلغ من حبّ الرسول لابنها عَليٍّ أن أردفه معه على راحلته يوم الفتح، ودخل مكة وهو رديف رسول الله ﷺ.

وعاش الزوج أبو العاص بن الربيع بعد زينب أربع سنوات؛ حيث توفِّي في السنة الثانية عشرة من الهجرة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

إنها قصة حبٍّ، وحكاية زوج، ازدانت بها كتب التاريخ، أعدتُ كتابتها للعبرة والذكرى.

رضي الله عن بطلة القصة ابنة الحبيب المصطفى ﷺ، وغفر الله لزوجها أبي العاص بن الربيع.

فكم كابد وعانى، ولكنه شرُف بالإسلام.

جمع الله الحبيبين في دار الخلد والكرامة، ورزقنا الله قربهم يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، ورحم الله قارئًا أمَّنَ على دعائنا ورجائنا، وجمعه الله مع الجميع في دار كرامته، إنه سميع الدعاء.

(١) أخرجه أحمد (٤١/ ٢٣٢ رقم٢٤٧٠٤)، وانظر: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان: شمس الدين أبو المظفر، المعروف بسبط ابن الجوزي (٤/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤١/ ٣٧٣ رقم٢٤٨٨٠)، وأبو داود (٢/ ٤٩٣ رقم٤٢٣٥)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٣٧٠ رقم٩١٣)، وحسنه الألباني في تحقيقه لسنن أبي داود.

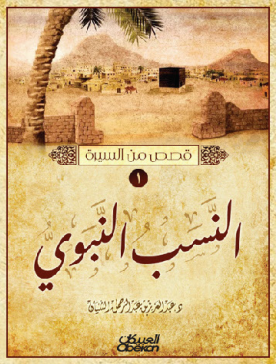

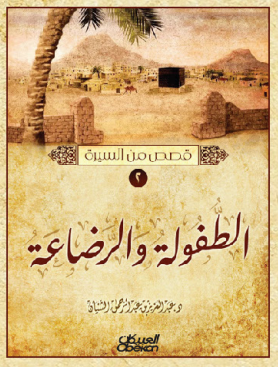

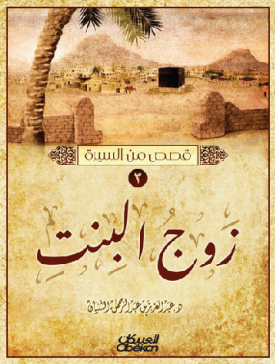

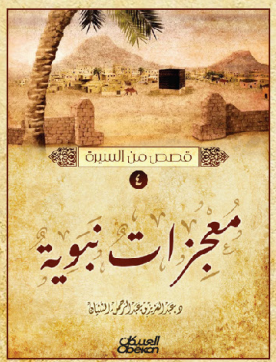

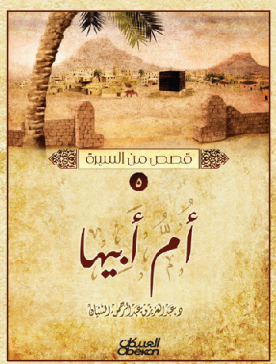

ISBN:9786035094573

السيرة النبوية

تواصل معنا
CONTACT US